

مفهوم العلم في كتاب ابن تومرت الأندلسي "كنز العلوم" دراسة وتحقيق

أحمد عبدالحليم عطية

تدور هذه الدراسة التمهيديّة – التي نقدم بها تحقيقنا – حول الأفكار الأساسية التي يحتوي عليها كتاب "كنز العلوم والدر المنظوم" في حقائق علم الشريعة ودقائق علم الطبيعة" للفيلسوف والمتكلم أبو عبدالله جمال الدين محمد بن علي الأندلسي المعروف بابن تومرت المغربي الأندلسي. وهو عمل هام يقدم محققاً للمرة الأولى، وترجع أهميته كما سيتضح من كونه عملاً فلسفياً متكاملًا يكشف عنه النقاب ليزيد من مساحة معرفتنا بصورة الفكر الفلسفي في بلاد المغرب والأندلس في فترة القرن الرابع الهجري وما يليه وهو عمل يحمل رؤية فكرية متكاملة يمتزج فيها الدين بالفلسفة والتصوف بعلم الكلام في رؤية للعالم في الخلق والعلم الإلهي والطبيعي اقرب إلى التشيع تذكرنا برسائل اخوان الصفا وبكتابات جابر بن حيان التي يمتزج فيها العلم التجريبي بالأسرار الغامضة، يعتمد على نظرية

الفيض فى تقديم تصور يربط بين عملية الخلق الالهى والعل
الإنسانى.

وابن تومرت صاحب هذا العمل "أبو عبدالله محمد بن على
الأندلسى" والذى لا يوجد لدينا عنه من المعلومات إلا أقل القليل.
شخصية تكاد تكون مجهولة فى تاريخ الفكر الإسلامى رغم وجود
بعض الاهتمامات المعاصرة به وبعمله، وهو يثير كثيراً من التساؤلات
بسبب ذلك الغموض الذى يحيط بحياته من جهة، وبسبب الخلط
بينه وبين ابن تومرت الملقب بمهدى الموحدين من جهة ثانية،
وبسبب ندرة ما كتب عنه من جهة ثالثة هذا من جانب، ومن جانب
آخر فإن كتابه الوحيد الذى نعرفه حتى الآن - موضوع دراستنا
الحالية "كنز العلوم"^(١) يثير بدوره اشكليات مماثلة عديدة حول
موضوعه ومحتواه وقيمتة العلمية ووجود عدد كبير من نسخه
المخطوطة بالقاهرة^(٢).

وتأتى الصعوبات الفنية المتعلقة بعملية التحقيق - وهى عديدة
- من أننا لا نملك أية معلومات ولو ضئيلة تتعلق بميلاد ابن تومرت
الأندلسى وحياته ومؤلفاته وافكاره حيث خلت كتابات القدماء من
أية اشارة اليه. ومن تناوله من المحدثين خلط بينه وبين المهدي
الموحدى. كما نجد ذلك عند حاجى خليفة "فى كشف الظنون"^(٣)
واسماعيل باشا البغدادى فى "هدية العارفين"^(٤) وان كان كل من
بروكلمان^(٥) وجولدزيهر Goldziher^(٦) قد اوضحا تمايز شخصية ابن
تومرت الأندلسى عن مهدي الموحدين وقيل ان نسترسل فى بيان

الصعوبات الجمة التي يواجهها محقق مثل هذا النص والاشكاليات المختلفة التي ينبغي عليه ان يحلها ويقدم لها افتراضات مقبولة للتفسير علينا ان نشير فلى البداية للقضية الأولى التي تدور حول شخصية ابن تومرت الذي يقدم كأحد فقهاء المالكية فى الأندلس^(٧).

وأول من لفت الانتباه إلى وجود مخطوط تام لكتاب ابن تومرت "كنز العلوم" فى المغرب هو الاستاذ الدكتور محمود على مكي عند تعليقه على مجموعة المخطوطات التي اطلع عليها عند زيارته للمغرب يوليو ١٩٦١ بمجلة المعهد المصرى بمديرىد^(٨) ويرى د. مكي ان ابن تومرت المتوفى عام ٣٩١هـ وجد فى فترة لايعرف للأندلس فيها نشاط كبير فى ميدان الفلسفة، ولعل كتابه هذا يغير مما ردهه كل الباحثين من عدم رواج العلوم الفلسفية فى عهد الخلافة الأموية والدولة العامرية^(٩)، ويعد كلام د. مكي دعوة للباحثين للاهتمام بالكتاب والكشف عنه ومناقشه ماجاء به من أفكار وبيان قيمته وتحديد مكانته فى تاريخ الفكر الفلسفى فى المغرب فقد يؤدى هذا إلى توسيع معرفتنا وتغير أفكارنا عن عدم رواج هذا اللون من التفكير فى تلك الفترة. وقد شغل الباحث المغربى محمد ابراهيم ألوزاد فى دراسته عن ابن تومرت الأندلسى وكتابه كنز العلوم بهذه القضية وأخذ يناقش كل ما يتعلق بهوية المؤلف وتاريخ وفاته ويستنتج انه يرجع إلى ما بعد القرن الخامس الهجرى ويرجع القرن السابع ويناقش مكي فى قيمة العمل الذى لا يمثل — فى تصوره —

مرحلة هامة فى الفكر الفلسفى فى الأندلس، كما لا يمثل محتواه إنتاجا فلسفيا عميقا فهو مجرد قراءة فقهية سطحية ذات نزعة صوفية أو أشعرية لخليط من المعارف العملية الشائعة وضعت فى صورة موجزة لتعليم المبتدئين^(١٠) وعلى أساس هذا الفهم قدم لنا عرضا لمحتويات الكتاب.

وبداية نعرض لهذه المسألة المتعلقة بتاريخ حياة هذه الشخصية وأول ما يلفت النظر هو كثرة نسخ كتاب ابن تومرت بالقاهرة فإذا كان للكتاب نسخة بالمغرب كما أشار مكى^(١١) ونسختين متشابهتين أحدهما بالمغرب والأخرى بتونس كما أوضح محمد إبراهيم^(١٢) فإنه توجد بدار الكتب المصرية عشر نسخ مختلفة منه، ومستقلة ومتميزة عن حيث الكم والفصول. والأبواب بعضها لا يتجاوز عشر ورقات^(١٣) والبعض الآخر يزيد ومنها ما يصل إلى ١٦٣ صفحة^(١٤) وبعضها ١٠٤^(١٥) ورقة وهى تعرض للموضوع "العلم" فى خمس أبواب الأخير منها يتكون من خمس فصول تبدأ بالطب، بعضها يكتفى به والآخر يعرض للعلوم الأخرى الكيمياء والسيمياء والفأل والزجر وتقويم الشمس والقمر فى إطار ربط العلوم الطبيعية بالقدرة الإلهية ووجود عدد من مخطوطاته يكتفى بالحديث عن الطب جعلت البعض - عمر رضا كحالة - يقدم لنا المؤلف باعتباره طبيبا^(١٦).

ووجود هذا العدد الكبير من مخطوطات كنز العلوم بالقاهرة يجعلنا نفترض افتراض أو على الأقل نطرح تساؤل حول هوية

المؤلف وحياته واحتمال زيارته لمصر واقامته بالقاهرة وممكن أن يتدعم هذا الفرض بالتحليل الفيلولوجي للنص ومعرفة إلى أى مدى تعد لغة المؤلف أقرب للمصرية الدارجة منها إلى العربية الفصحى ويمكن أن نضيف إلى ذلك نتائج تحليلنا للأفكار الأساسية التى يقوم عليها العمل وهى كما ألمحنا أفكار مشوبه بروح التشيع الاثنى عشر فهل ينتمى المؤلف للشيعة أو له علاقة بالدعوة الفاطمية وهل كان يقوم بالدعوة فى القاهرة. أسئلة عديدة هى مجرد افتراضات مبدئية تحتاج إلى التوقف أمامها وهى مسألة نكتفى بالإشارة إليها الآن ولا نطمع فى حسمها قبل أن تكتمل صورة المؤلف أو تظهر كتابات أخرى له أو عنه تدعم معرفتنا به.

وإن كانت المصادر القديمة اغفلت ذكر المؤلف وخلطت بعض المصادر الحديثة بينه وبين مهدي الموحدين فإن هناك من ميز بين الشخصيتين وأكد نسبة العمل – كما جاء على صفحة الغلاف – إلى مؤلفنا ابن تومرت الأندلسى وعلى هذا اجمعت النسخ المخطوطة التى بين أيدينا.

إلا أن الخلاف حول هوية المؤلف، وهو اختلاف ناتج من فهم موضوع الكتاب – حيث يقدمه البعض باعتباره فقيهاً أو متكلماً أو طبيباً – يعتبر اختلافاً أولياً ويسلمنا إلى اختلاف آخر حول تاريخ ابن تومرت وتلك صعوبة ثانية – هامة – قد يؤدى حسمها أو تقديم بعض الافتراضات حولها إلى المساعدة فى رسم صورة للمؤلف وبيان إلى أى مدى كانت أفكاره تعبيراً عن الواقع الفكرى المعاصر

أو ترديداً لمعارف مختصرة دون تعمق أسسها الفلسفية. والحقيقة أن تحديد تاريخ ميلاد ووفاة ابن تومرت مسألة هامة في تحقيق المخطوط وإلقاء ضوء على بعض ما جاء به من قضايا وبيان قيمة عمله. وإذا كنا لا نملك تحديداً لتاريخ ميلاد المؤلف فإن لدينا موقفين في تحديد تاريخ وفاته الأول يحدد ذلك بسنة ٣٩١هـ كما لدى بروكلمان ومن تابعه من ثقات العلماء المحققين مثل محمود مكي وعمر رضا كحالة. والموقف الثاني يشكك في هذا التاريخ ويرجع به إلى ما بعد القرن الخامس الهجري وعلى الأرجح القرن السابع وهو موقف محمد إبراهيم ألوزاد الذي يرى ان قراءة بروكلمان لتاريخ وفاة ابن تومرت يعود إلى خطأ في القراءة أو تصحيف في ورقة المخطوط.

ويبنى الباحث المغربي استنتاجاته على مايلي:

— حديث ابن تومرت الأندلسي في الفصل الثاني^(١٧) من الباب الخامس من كتابه عن علم الكيمياء واعلامه واقتباسه آياتاً في الكيمياء "للحكيم الفاضل علي بن محمد الانصاري صاحب الشذور الذهبية" ويبين لنا ان المقصود بالشذور الذهبية الكتاب المعروف بديوان الشذور وتحقيق الأمور" لبرهان الدين ابن الحسن علي بن موسى بن ارفع رأسه الانصاري الجياني الأندلسي المتوفى ٥٩٣هـ/١١٩٧م وقد تأكد من أن هذه الآيات الواردة في ورقة ١٠٠، وورقة ١٠٢ من المخطوط توجد في ديوان الشذور وتحقيق الأمور^(١٨).

– أن حديث صاحب كنز العلوم فى تناولة لقضية البعث ضمن الباب الثانى يعود فى أصله إلى ابن سينا المتوفى ٤٢٨هـ فى انكاره للبعث الجسمانى ضمن كتابه "منطق المشرقين".

ويخلص محمد إبراهيم من ذلك إلى الكتاب لا ينتمى للقرن الرابع الهجرى وانه يعود إلى ما بعد القرن الخامس. وانه لا يمثل مرحلة هامة فى الفكر الفلسفى فى الأندلس ولإدراك ذلك يقدم لنا مقتطفات من الكتاب المخطوط تتناول أهم القضايا العقدية.

وقبل ان نتحدث عن موضوع المخطوط والقضايا التى يعالجها سوف نتقدم بمجموعة من الافتراضات العامة التى تثيرها نسخ العمل التى عثرنا عليها بالقاهرة والتى يمهد الاتفاق حولها وضع مبادئ أساسية يقوم على أساسها أى تحقيق علمى للعمل.

أ– يقدم لنا الباحث استنتاجه على أساس من اقتباس المؤلف لبعض الأفكار الفلسفية والأبيات الشعرية من فلاسفة وشعراء اتوازمائياً بعد عام ٣٩١هـ، هما ابن سينا ٤٢٨هـ وبرهان الدين ابن الحسن على بن موسى الانصارى ٥٩٣هـ.

ب– أخذ المؤلف عن ابن سينا فكرته عن البعث. والحقيقة أن النص الذى اوردته للمؤلف ونص ابن سينا مختلفين كلية من حيث الفكرة والصياغة اللفظية. صحيح أن كلا منهما قد تناول موضوع البعث الجسمانى انكره ابن سينا وذم انكاره ابن تومرت وحديث ابن سينا يتابع افكار اصحاب الطبيعة من الدهريين الذين استبعدوا بعث الإنسان بعد أن تحول إلى جزء

من الأرض وترابها وتحول إلى نبات يحيا عليه بشر آخرين،
وهي عقيدة شائعة سابقة عليه وعلى ابن تومرت صارت
كالمثل السائر الذى يتناقله الحكماء بينما ينكر ابن تومرت
ذلك بناء على فكرة غذاء الإنسان على لحم الإنسان وهذا ما
لم يقله ابن سينا^(١٩).

ج-

يخبرنا الباحث أن حديث ابن تومرت عن الكيمياء يأتي فى
الفصل الثالث من الباب الخامس والحقيقة أن المؤلف تناول
ذلك الموضوع (علم الكيمياء) فى الفصل الثانى، وان هذا
الفصل الثانى موجود فى بعض النسخ وغير موجود فى البعض
الآخر، حيث اقتضرت نسختنا حكمة وفلسفة رقم ٤٤٢،
ورقم ٤٤٤ على فصل الطب فقط ولا يوجد بها فصل
الكيمياء وما بعده من فصول وهذا يجعلنا أمام افتراضين،
الأول ان هاتين النسختين كاملتين وبالتالي فإن الفصول
الزائدة فى النسخ الأخرى تكون منحولة اذا اختلفت لفظاً
ولغة واسلوباً وفكرة مع باقى الكتاب ومعرفة ابن تومرت
كطبيب وان له كتاب فى الطب (عمر رضا كحالة) يميل
بهذا رأى للترجيح أو أن هذه الفصول فى حالة اتفاقها
فيلوجيا واسلوبيا مع — بقية فصول وأبواب الكتاب فإن
رقمى ٤٤٢، ٤٤٤ ناقصتين وبقية النسخ كاملة مع ملاحظة
أن اكتمال النسخ والتأكد من صحة اتفاق فصل الكيمياء
والسيمياء والفأل والزجر وتقويم الشمس والقمر مع بقية

الكتاب لا يعنى قبول استدلالات الباحث بخصوص نقل ابن تومرت عن غيره.

د- أن وجود هذه الأشعار قد يكون إضافة توضيحية دخيلة على النص إضافتها أحد القراء للمخطوط ثم صارت بعد ذلك جزءاً من الهامش وبالتالي فهي ليست من صلب المتن، ومع هذا فالمسألة تتعلق بمدى اتساق هذا الأبيات والنص الذى بين أيدينا وهي مسألة هامة فى هذا السياق فهل الأبيات جزء من النص ومن وضع المؤلف أم هي دخيلة عليه ومن وضع أحد القراء "أن قراءة متفحصة للفصل الثانى تدلنا على ان المجموعة الأولى من الشعر وهي مكونة من ستة أبيات (ص ٨٦ أ) اقرب إلى أن تكون إضافة فهي مسبوقه بالقول " ألا ترى قول الحكيم الفاضل على بن محمد الأندلسى ". بينما المجموعة الثانية (ص ٨٨ ب) والمسبوقه بـ "قال الأندلسى فى شذوره الذهبية" يتلوها شرحاً توضيحاً لمعنى الأبيات وهذين المثالين لا يعطينا الحق فى القول بإنهما من عمل المؤلف. لأن تحقيق نسبة هذه الأشعار إلى برهان الدين ابى الحسن على بن موسى بن ارفع رأسه الانصارى صاحب ديوان الشذور وتحقيق الأمور يحتاج اثبات أن هذا الديوان هو نفسه "الشذور الذهبية" وإنهما ليسا عمليين مختلفين وذلك بسبب اختلاف اسمى صاحب العملين فالديوان الذى

يحدثنا عنه الباحث لا يزال مخطوطاً ولا نعلم ما اذا كانت هذه الاشعار من نظمه أم من جمعه.

ونأتى بعد ذلك إلى المسألة الهامة المتعلقة بموضوع البحث وبيان الأفكار الأساسية للكتاب وقيمتها العلمية، التي أشار إليها محمود مكى هذه القيمة التي قد تغير من فهمنا لواقع الفلسفة بالمغرب والأندلس في هذه الفترة مقابل تقليل محمد إبراهيم من هذه الأهمية بناء على قراءة للنص المخطوط أو قل ثلث النص فالعمل كما اشرنا يتكون من خمس أبواب الأخير منها عن العلوم الطبيعية وهو ما يمثل ثلثي الكتاب فبينما يصل عدد اوراق الأبواب الأولى حسب مخطوط (حكمة وطبيعة ٤١١) بدار الكتاب إلى ٣٨ ورقة فإن فصول الباب الأخير التي لم يتعرض لها محمد إبراهيم فى بحثه تبلغ حوالى ستون ورقة وتعرض لهذا الجانب الذى لم يهتم به الباحث المغربى وهو العلوم الطبيعية المختلفة: الطب والكيمياء السيمياء وتقويم الشمس والقمر والفأل والزجر. وهى مؤسسة عند صاحب العمل على فهم لطبيعة العلم ومعناه مما جعلنا نؤكد أن موضوع الكتاب - وكما سيتضح من الدراسة الحالية - هو مفهوم العلم وماهيته وانواعه ومصدره واصوله وفروعه التي تبدأ بالشرعية وتتضح فى الطبيعة، فهو ينتمى إلى كتب تصنيف العلوم العربية^(٢٠) التي يركز فيها ابن تومرت على العلوم الطبيعية موضعاً أساسها الدينى الالهى، وعرضاً سريعاً لمحتوى المخطوط يظهر لنا ذلك.

وسوف نعتمد في الدراسة الحالية على المخطوط رقم ٤١١
 حكمة وطبيعة بدار الكتب المصرية والذي يشير إلى اسم الكتاب
 ومؤلفه اشارة واضحة في صفحة العنوان على الوجه التالي: كنز
 العلوم والدر المنظوم في [حقائق] علم الشريعة ودقائق علم الطبيعة،
 من تصنيف الشيخ الامام الاجل العالم العلامة. جمال الدين محمد بن
 علي بن تومرت الأندلسي^(٢١) وهي تبدأ كالاتي:

الحمد لله الأول بلا بداية في أزليته، الآخر لا نهاية في ابديته
 الظاهر فوق كل شيء ببدیع صنعته، الباطن في كل شيء بعلمه وقدرته
 الذي نور قلوب العارفين بمصاييح معرفته واختصهم لقربه واجلسهم
 في حضرة كمال بهجته. ويخبرنا منذ البداية، في نفس الصفحة
 السابقة(٤أ) عن هدفه في تناول العلوم المختلفة علماً علماً "فإن لكل
 عالم منهاج ينهج فيه من العلوم إلى الأهم فالأهم ... ويوضح أن
 افضل العلم هو المعرفة بالله عزوجل(٤ب) وتوضح قضيته الأساسية
 والتي يعلن عنها عنوان كتابه في تأكيده ان "جميع العلوم مندرجة
 تحت علم الشريعة وعلم الطبيعة، اما الشريعة فهو علم الدين القيم
 وهو مندوب إليه شرعاً وهو علم الطبيعة مقصود الحكمة... وعلم
 الطبيعة هو علم الحكمة التي كتبها الله بيد قدرته وابدع فيه
 مخترعات صنعته ليدل على حقيقة معرفته^(٢٢) العلم هنا هو الأساس
 الذي ينطلق منه ابن تومرت الأندلسي، لكن أي علم، أن المؤلف
 وهو متكلم يتفق مع جميع متكلمي الإسلام في ان العلم هو علم
 الشريعة وان كان ينفرد عن هؤلاء بكونه طبيياً^(٢٣) ومن هنا فهو

يضيف إليه علم الطبيعة، وهذا العلم الأخير - أو قل العلوم الأخيرة -
تقربه من العلماء المهتمين بالطب والصنعة والفلك لأنه يهدف إلى:
معرفة ما أودع الله في علم الطبيعة من المصنوعات الجارية
بالانفعالات الطبيعية الروحانيات والجسمانيات العلويات
والسفليات ويفصل في بيان العلم موضحاً أنه يشتمل على ما دبر في
ذلك من استخراج الأمور الغامضات ومعالجة الأبدان المريضة
وقلب الجواهر الخسيسات إلى جواهر نفيسات^(٢٤) فالعلم الطبيعي
يتسع معناه ليشمل علوم البدن والمعادن والاسرار وهو في هذا الفهم
يقترّب كثيراً من علماء الصنعة الذين يشير إليهم ويكاد يتفق في هذا
الفهم مع العالم العربي جابر بن حيان الذي تمتزج لديه الكيمياء
بالاسرار^(٢٥).

وبعد بيان خطة الكتاب وهدفه واقسامه يعرض الباب الأول
لعلم الشريعة والحقيقة وهو اقرب إلى مقدمات العلم النظرية ويتناول
فيه اصول الدين وهو ما يرتقى به السائل إلى مالا نهاية له من حقائق
علم الشريعة، والاصل في ذلك ان مقصود العلم والمراد منه هو علم
التوحيد الخالص^(٢٦).

والعلم له بداية ونهاية، اما البداية فهي العلم المشروع بالظاهر
وهو علم الشريعة، وأما النهاية فهو العلم بالباطن وهو علم الحقيقة،
وهما متلازمان متفقان على الشريعة ظاهراً وباطناً، ولهما: ماهية
وكمية وكيفية.

ويحدد لنا الماهية في ثلاث درجات يترقى فيها العلم وهي:

العلم، ثم المعرفة، ثم المشاهدة، اما العلم فهو علم الشريعة
 اما المعرفة فهي علم الحقيقة، اما علم المشاهدة فهي حقيقة
 الحقيقة^(٢٧).

وتحدد الكيفية فى تقسيم العلم نفسه إلى: مسموع ومنظور
 ومعقول. فالعلم المسموع، هو ما سمع من الكتب وجاءت به الرسل
 من الأسماء والذات والصفات، والعلم المنظور هو ما كتبه يد القدرة
 الالهية بغير الات وسطرته ارادة الله عزوجل من جميع مخلوقاته،
 وهذان العلماء: المسموع والمنظور هما علم الشريعة الظاهرة بعلم
 اليقين^(٢٨).

اما العلم المعقول فهو شريعة باطنة مؤيدة للشريعة الظاهرة
 حتى يقضى إلى حق اليقين وذلك ما حكم به العقل النورانى فى
 القلب الإنسانى، وللعقل هنا معنى صوفى، فالعقل جعله الله تعالى
 رسولاً باطناً مؤيداً بالنظر الحقيقى لما جاء به النبى^(٢٩).

ويعرض ابن تومرت لمسائل علم التوحيد الخالص مثل: ادلة
 اثبات وجود الله، دليل الخلق^(٣٠) دليل الصنائع^(٣١) ثم اثبات
 الوجدانية^(٣٢) والتنزية^(٣٣). كما يتحدث عن الذات والصفات مما
 يشمل أهم موضوعات اصول الدين التى نتناولها فى كيفية العلم.

وفى حديثه عن الكمية يوضح أن درجات العلم ثلاث:

علم الشريعة الذى هو بداية العلم، وعلم الحقيقة الذى هو
 المعرفة والنهاية، وعلم المشاهدة الذى هو حقيقة الحقيقة ونهاية

النهاية^(٣٤)، ويتضح من موضوع الباب الأول وعنوانه ومصطلحاته هذا الربط الوثيق بين الشريعة والحقيقة بين الفقه والتصوف.

ويتناول ابن تومرت الأندلسى فى الباب الثانى من كتابه (والذى يشغل صفحات ١٥ ب — ٢٧ أ) اصل علم الطبائع والمخلوقات. فهو بناء على ما قدمه لنا فى الباب الأول من "ميتافيزيقا" العقيدة يقدم فى هذا الباب الثانى "انطولوجيا" الخلق، فهذا الباب جعله اصل وقاعدة لعلم الصنعة — الذى هو من أجل العلوم وأشرفها — وهو يخبرنا أنه يهدف من هذا الباب تحقيق فائدتين:

احدهما التنبيه على قدرة الله تعالى وعظمته وبديع صنعته، والثانية يذكر فيها اصولاً يبنى عليها باقى أبواب الكتاب "لأنى جعلت باقىته كله فى علم الطبيعة واودعت فيه علوماً جليلة"^(٣٥).

ويقدم — لنا اعتماداً على حديث "كنت كنزاً لم اعرف فخلقت خلقاً وتعرفت لهم فبى عرفونى" — نظرية انطولوجيا فى الخلق تعتمد على نظرية الفيض والصدور وتقوم على فكرة الحقيقة المحمدية^(٣٦). فأول عملية الخلق هو خلق نور العقل الكامل (الذى هو نور النبى محمد) الذى نشأت منه الأنوار وجميع العقول، فأول شىء خلقه الله تعالى هو نور العقل وخلق معه روح الأمر الذى هو أصل لجميع الأرواح ومنه مصدرها وإليه يؤول أمرها وخلق منه نور العقل الالهامى الذى خلق معه الروح الأمين وروح الحياة^(٣٧) ثم مكثت هذه الانوار تعبد الله تعالى فى مكان الخوف اثنى عشر الف

سنة فنشأت أربع طبائع مختلف ممتزجات فى جسم واحد، وهو أول المزاجات الطبيعية وهو أصل لجميع المخلوقات العلويات، ومكث يعبد الله فى مقام الرجاء اثنى عشر الف سنة^(٣٨).

ويولى ابن تومرت تفصيل عملية الخلق عن طريق الفيض فقد ادار الله تعالى ذلك الفلك الأعلى على الأسفل دورة ثالثة فامتزجت الأرواح بالأجسام مزاجاً ثالثاً فى موضع الاعتدال فخلق الله تعالى النبات والحيوان غير الآدميين وكان من ذلك غذاء آدم. وادار الله تعالى الفلك الأعلى على الأسفل دورة رابعة فامتزجت الأرواح بالأجسام مزاجاً رابعاً فخلق الله تعالى حواء. ومزجاً خامساً ينفرد منها البسيط ببساطة وتبقى المركبات أربع.

وهذه كما يخبرنا ابن تومرت مصنوعات الله المعلومة من علم الطبيعة المؤيد لعلم الشريعة بما سطرته يد القدرة بالحكمة البديعة ليقرأه أولى البصائر وأولو الألباب.

ومن انطولوجيا الخلق ينتقل بنا إلى ايستمولوجيا الفيض فيقدم لنا فى الباب الثالث فى معرفة العقل والروح والنفس تعريفات محددة لهذه المفاهيم^(٣٩).

فالعقل هو نور شريف الطف من الروح والنفس ومنشأه من نور العقل الكامل والأقدام الذى خلقه الله من نور وجهه الأكرم، ومصدر فعله وروحانيته من روح الأمر، الذى هو مصدر العلم والوحى والالهام، العقل نور الهامى ونور نورانى يشهد العلم والمعرفة

والقدرة عن روح الأمر ثم يلقيه إلى الروح التي جعلها الله ساكنة في القلب وهى الروح الحيوانية المحركة للبدن.

اما الروح: فإنها روح لطيفة حيوانية الطف من النفس طبعها الحياة الحركة ومنشأها ومصدرها وفعلها من العقل الالهامى ومسكانها القلب، أفاض عليها من نور العلم والمعرفة.

أما النفس: فإنها روح لطيفة حارة مفرطة الحرارة:

ويدور الباب الرابع على الإنسان وهو مملكة التجليات أو الرمز الذى يدل به الله على النفس. والبحث فى الإنسان من الموضوعات الهامة التى تناولها ابن تومرت والتى تكاد لا تظهر فى التراث ومن هنا أهمية هذا الباب، "فى فضائل الآدمى ومعرفة الخالق من الخلاق من صورته" فالله خلق آدم على صورته، أى دل بصورة خلق آدم على علمه ومعرفته يقول: "قد أودع الله تعالى فى الإنسان نفسه وفى تركيب صورته من العلم والمعرفة والحكمة بتدبير العقل ما يستخرج به جميع العلوم الغامضة الطبيعية وغيرها"^(٤٠) وأهمية هذا الباب المحورى فى كونه يقدم لنا الإنسان بوصفه أداة الوصل ونقطة التلاقى بين علم الشريعة وعلم الطبيعة، أنه مركز الدائرة ومقر العلم والمعرفة والحكمة فهو الذى يستخرج بتدبير العقل العلوم الطبيعية التى يخصصها لها المؤلف الباب الخامس بفصوله الخمسة والذى عنوانه "فى إستخراج العلوم الغامضة الطبيعية".

أن الطبيعة لما كانت دالاً على معرفة الله وعظمته وقدرته وبديع حكمته كانت أيضاً دالاً على إستخراج العلوم الغامضة، فكأن

الطبيعة عند ابن تومرت جوهر واحد لكنها تبدو في مظهرين على ما يقول اسبينوزا: الطبيعية الطابعة (الخالقة) والطبيعة المطبوعة (المخلوقة) فهي من جهة تعبيراً عن الخالق دالاً على معرفة الله وعظمته وقدرته ومن جهة ثانية تجلياً لخلق العلوم المختلفة التي هي آيات للخلق ولا يقدم لنا ابن تومرت من العلوم الطبيعية إلا ما يراها أقرب إلى "العلوم المحمودة" مقابل "العلوم المذمومة": فالطب والكيمياء والسيمياء وتقويم الشمس والقمر، والفأل والزجر "هذه أحسن العلوم الغامضة الطبيعية وأبعدها عن الخطر". ويعرض لها على التوالي في الفصول الخمسة التالية المكونة للباب الخامس.

أولاً: الطب:

وهو اشرف العلوم الطبيعية واجلّها قدراً، وهنا يتفق ابن تومرت مع تاريخ الحضارة الإسلامية التي عنيت عناية هامة بعلم الطب وكان أول العلوم التي نقلت إلى العربية واصبح لنا فيه تراثا ضخما مما جعل كثير من مؤرخي العلم يخصصون المجلدات للتأريخ للعلم من خلال عناية العلماء بالطب مثل ابن ابي أصيبعة في عيون الأبناء في طبقات الأطباء^(٤١) ورغم ذلك فإن كتب تصنيف العلم العربي قليلاً ما اهتمت بتحديد مكانة الطب في اطار تصنيف العلم ومن هنا أهمية أن يأتي ابن تومرت بالطب ليجعله أول العلوم ويخصص له اكبر عدد من صفحات كتابه (ص ٣٩ حتى ٧٦).

والطب ينقسم إلى قسمين: حفظ صحة موجودة او رد صحة مفقودة^(٤٢) ويعرف كل منهما، ويعرض للأصول الطبية، ويتحدث

عن الأمزجة الأربعة: الصفراوى والبلغمى خلط الدم والسوداوى ويتحدث بالتفصيل عن الأمراض المختلفة أسمائها واعراضها وسببها وأنواع العلاج المختلفة مثل: الكلف، الصداع الصمم، والرمد، الزكام، الإسنان، السعال، القولنج، وجع الظهر، عسر البول، البواسير، النواصير، القروح والجروح، الجرب، الجذام، البرص واليرقان، الاستسقاء، لسع الحيات والعقارب، ومن رد الصحة المفقودة ينتقل إلى حفظ الصحة الموجودة فالوقاية خير من العلاج "الاحتماء فى حالة الصحة خير من شرب الأدوية فى حال المرض" (٤٣).

ثانياً : علم الكيمياء:

والعلم الذى يلى الطب هو الكيمياء الذى يعرض له ابن تومرت فى الفصل الثانى، وهو يعرفه بانه من أجل العلوم الغامضة الطبيعية، واشرفها قدراً يترتب عليه من اصلاح امر الدين والدنيا والآخرة وهو فى هذا التعريف للعلم يساير إتجاهها إسلامياً واضحاً يؤسس الاستمولوجيا على الميتافيزيقا ويربط العلم بالعقيدة كما نجد ذلك واضحاً لدى الخازنى صاحب كتاب "ميزان الحكمة" (٤٤) فهو يؤسس العلم أولاً بربطه بالدين قبل أن يتناول تقنياته التى يعرضها لها بعد ذلك بقوله والكيمياء عبارة عن قلب الجواهر من الحالة الخسية إلى الحالة النفسية بالتدبير الطبيعى، وهو معالجة كل جسد سفلى من داء ركبه الله فيه بالعرض لا بالذات من ركب فى المعادن والنبات والحيوان ارواحها ثم الهم الحكماء علمه وازالة ذلك الداء العرضى

عن الذات الاصلى فسموا ذلك علم الكيمياء وهو علم منقسم إلى علم وعمل وكلاهما مرموزان فى كتب العلماء على هذه الصفة الشريفة.

ويقدم لنا تحديدات نظرية للمواد الكيميائية، فالعلم هو أن يعلم أن كل واحد من المركبات الثلاثة جنس واحد مستقل بنفسه، وكل جنس منها يجمع أنواعاً وكل نوع يجمع اشخاصاً وكل واحد من الأشخاص والأنواع له ماهية وكيفية وكمية.

وتنقسم الكيمياء عنده - كما لدى جابر ابن حيان^(٤٥) - إلى علم وعمل وإلى كيمياء كبرى وصغرى، الأولى هى المستحقة لاسم الكبريت الأحمر والترياق الأكبر الشافى من داء النفوس بداءه اصله الملك القدوس أما الكيمياء الصغرى فهى صنعة الذهب الذى هو قلب اعيان الفضة والنحاس والحديد والرصاص إلى عين الذهب الابريز.

وهو يستشهد بإعلام علماء الكيمياء العرب ويذكرهم مثل:

خالد بن يزيد الحكيم، والحكيم علم الدين الطغرى والحكيم الفاضل على بن محمد الأندلسى صاحب الشذور الذهبية، وذو النون وغيرهما.

ثالثاً : علم السيمياء :

يخصص الفصل الثالث لعلم السيمياء ويقدم تعريفاً له على الوجه التالى: اعلم هداك الله تعالى أن السيمياء من أجل علوم الطبيعة واشرفها، وان السيمياء عبارة عن تأليف اسم أو اسمين أو ثلاثة أو

أربعة ونحو ذلك مما اجتمع من حروف اودع الله تعالى فيها سراسمه الأعظم، واشتملت عليها الطبائع الأربع فإذا نقشها قلم الارادة والتوفيق وفقا مركباً في قالب قلب قابل كان ذلك رصيلاً لمن وفق له متى جرى إلى المطلوب انفعل أسرع من لمح البصر بقدره من يقول للشئ كن فيكون^(٤٦) والسيمياء عند علم وعمل^(٤٧).

رابعا : علم النجوم :

الذى خصص له الفصل الرابع بعنوان "فى تقويم الشمس والقمر"، يقول: اعلم هداك تعالى أن علم النجوم علم صحيح من اشرف علوم الطبيعة لأن علمها علم شريعة منظورة كتبها الله تعالى بيد قدرته وأودع فيها ما شاء من علمه وحكمته وإنما يكره هذا العلم لمن اعتقد ان الأمور الكائنة بأفعالها منسوبة إليها فقط وأن حولها وقوتها وقدرتها إلى نفسها، وهذا كفر محض، أما من اعتقد ان الله هو صانعها ومصورها ومدبرها ومسخرها ومجريها على ما شاء من مشيئة وأنها تجرى فى افعالها بقوى مخلوقة للخير والشر كما تجرى افعال النفس من طاعة ومعصية. وابن تومرت هنا فى تعريفه لعلم النجوم يقدم نموذجاً لفهمه للعلوم الطبيعية التى هى علوم شريعة منظورة فالعلم علمان الشريعة المكتوبة والشريعة المنظورة وكلاهما مظهران للعلم الالهى.

خامسا : الفال والزجر :

وهما موضوع الفصل الخامس والأخير الذى يكتمل به كنز العلوم والدر المنظوم وهو علم صحيح مجرب يستعمله الأنبياء

والعلماء لما فى ذلك التأثير والاشارة بالوحى الالهامى وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — يحب الفأل ويكره الطيرة، وأفضل ما يستخدم به الفأل أفعال نفس الإنسان الذى أودع الله فيه جميع العلوم الجلية والخفية إذ هو — كما بين الباب الرابع — موضوع للعلم والمعرفة والحكمة واستنباط جميع العلوم واستخراجها به ومنه^(٤٨).

بهذا العرض يتضح لنا دلالة العنوان "كنز العلوم" وهو الله الذى يعد أساس ومصدر العلم، والعلم الالهى واحد يظهر فى شكلين أحدهما كلمة الله وهى ميتافيزيقا العلم أو الشريعة والثانى قدرة الله التى سطرت العلم فى الطبيعة فهناك تطابق حقائق علم الشريعة ودقائق علم الطبيعة، ومن هنا يقدم لنا ابن تومرت تصنيفه للعلوم المختلفة موضعاً معنى العلم وطبيعته ودرجاته ثم تجلياته الظاهرة فى علوم الطبيعة التى عرضها علينا فى الباب الأخير الذى يعد تنويجاً للميتافيزيقا الدينية التى قدمها لنا فى الأبواب الأولى بحيث يقترب إلى حد كبير مع ذلك التصور الذى قدمه ديكرت فى "مبادئ الفلسفة" الذى صور لنا الفلسفة شجرة جذورها الميتافيزيقا وجذعها الفيزيقا وفروعها الطب والميكانيكا والأخلاق^(٤٩)، والحقيقة أنه إذا كان ديكرت يمثل نقطة تحول الفلسفة فى العصور الحديثة بسبب سعيه لتحقيق حلمه بتوحيد المعرفة البشرية فإن مؤلفنا المتكلم المسلم قد سعى فى كتابه الحالى لربط المعرفة الطبيعية والحقيقة الالهية فى كنز العلوم الذى يجعل من العلم أساس الوجود.

تلك المحاولة فى فهم العلم سواء العلم الدينى أو العلوم الطبيعية التى تعد تجليا للعلم الالهى هى دراسة فى العلم ومعناها وأنواعه، أنها تصنيف للعلوم التجريبية على أساس دينى وهى محاولة متميزة فى بيان مفهوم العلم لانجدها مسبوقه فى الفكر الإسلامى سواء فى المشرق أو المغرب، مما يجعلنا نأمل أن نعثر على مؤلفات أخرى لابن تومرت الأندلسى فى المستقبل القريب أو معلومات تزيد من معرفتنا بأفكاره وتلقى اضواء على العمل الهام لابن تومرت الذى تقدمه محققنا للقارئ العربى عن عدد من النسخ المختلفة. وتعد هذه الدراسة التمهيدية بمثابة تقديم للتحقيق.

هوامش

- ١- تعد هذه الدراسة التى قدمت إلى مؤتمر الدراسات الأندلسية الثالث الذى عقد بكلية الآداب جامعة القاهرة فى الفترة ١١-١٤ يناير ١٩٩٢، مقدمة تحقيقنا لكتاب كنز العلوم والدر المنظوم فى حقائق علم الشريعة ودقائق علم الطبيعة.
- ٢- انظر فهرس الكتب العربية، فهرس المخطوطات، فهارس الفلسفة بدار الكتب المصرية مخطوط ص ٢٥٦ رقم ١٥٦، ٢٣م، ١٨٠ مجاميع، فنون متنوعة ارقام ١، ٢، ٩٢، ٣٢٦، وتبلغ النسخ الموجودة بدار الكتب المصرية عشر نسخ هى: حكمة وفلسفة ٢٣م مصطفى فاضل، حكمة وفلسفة ١٣م، حكمة وفلسفة ١٥٦، حكمة وفلسفة ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ومعاريف عامة طلعت ١٨٨، سالم تيمور ٤١، طبيعة وكيمياء ١٢٤.
- ٣- حاجى خليفة: كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون، عنى بتصحيح والتعليق عليه محمد شرف الدين ورفعت يالتقايا طبعة وكالة المعارف ١٩٤١.

- ٤- اسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين،
المجلد الثانى ص ٩٠.
- ٥- بروكلمان: تاريخ الأدب العربى، ترجمة عبدالحليم النجار دار المعارف بمصر
الجزء الثالث ١٩٦٢، ص ٣٩١.
- 6- Goldziher : Le Liven de Mahamed jbn Toumorte Alger 1903
A ppenfd dix I (Deux ibn Tomante P- 103, 104, 105.
- ٧- بروكلمان: الموضوع السابق.
- ٨- د. محمود على مكى: مجلد المعهد العلمى المصرى بمديرىد المجلد ٩-١٠،
عام ١٩٦١/١٩٦٢، ص ٤٤٥.
- ٩- الموضوع السابق.
- ١٠- محمد إبراهيم آلوزاد: ابن تومرت الأندلسى وكتابه كنز العلوم، مجلة كلية
الآداب والعلوم الإنسانية بفاس العدد الحادى عشر، ١٩٩٠، ص ١٣٩.
- ١١- نسخة ضمن مجموعة عبد الحى الكثنانى بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم
١٥٦٣، وهى نسخة مكتوبة بخط مغربى واضح عدد اوراقها ٦٢ ورقة قياس
١٥، ٥ - ١٢.
- ١٢- يشير محمد إبراهيم إلى تشابه هذه النسخة مع النسخة التونسية تحت
رقم ١٨٥٦١ ويؤكد تطابقهما بحيث تكون احدهما صورة من الأخرى.
- ١٣- نسخة تحت عنوان حكمة وفلسفة ٢٣م مصطفى فى عشر ورفات.
- ١٤- طبيعة وكيمياء ١٢٤.
- ١٥- نسخة حكمة وفلسفة ٤٤٢، حكمة وفلسفة ٤٤٤.
- ١٦- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، الجزء العاشر، ط ٢ مكتبة المثنى لبنان
١٩٧٢، ص ٣١٢.
- ١٧- راجع دراستنا تصنيف العلوم عند العرب، فى دراسات فى تاريخ العلوم عند
العرب دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٠، ص ١٥٩.

- ١٨- جمال الدين على بن تومرت الأندلسي: كنز العلوم والدر المنظوم في [حقائق] علم الشريعة ودقائق علم الطبيعة ٤١١ حكمة وطبيعة بدار الكتب المصرية، صفحة العنوان. (قيد التحقيق).
- ١٩- نفس المصدر، ص ٥ أ.
- ٢٠- انظر فوق رقم ١٧.
- ٢١- انظر فوق رقم ١٨.
- ٢٢- انظر فوق رقم ١٩.
- ٢٣- عمر رضا كحالة المرجع السابق.
- ٢٤- ص ٥ أ.
- ٢٥- راجع دراستنا السابقة التصنيف الانطولوجي للعلوم ص ١٥٩ وما بعدها.
- ٢٦- ص ٦ أ.
- ٢٧- ص ٦ أ، ٦ ب.
- ٢٨- ص ٩ ب.
- ٢٩- ص ٩ ب.
- ٣٠- ص ١١ ب.
- ٣١- ص ١٢ ب.
- ٣٢- ص ١٢ أ.
- ٣٣- ص ١٢ ب، ١٣ أ.
- ٣٤- ص ١٣ ب.
- ٣٥- ص ١٦ أ.
- ٣٦- فيما يتعلق بنظرية الحقيقة المحمدية راجع ما كتبه نيكلسون: في التصوف الإسلامي وتاريخه ترجمة ابو العلا عفيفي، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٩م ص ١٥ وما بعدها.
- ٣٧- ص ١٧ أ.
- ٣٨- ص ١٩ أ، ٢٠ أ.
- ٣٩- صفحات ٢٧ أ- ٣٤ ب.
- ٤٠- ص ٣٨ أ.

- ٤١- ابن ابي اصيبعة: عيون الانباء فى طبقات الأطباء شرح وتحقيق:
د. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.
- ٤٢- ص ٤٠ أ.
- ٤٣- ص ٦٥ أ.
- ٤٤- الخازنى (ابو الفتح عبدالرحمن بن منصور الخازنى): ميزان الحكمة مطبعة
حيدر آباد الدكن ط عام ١٣٥٩هـ.
- ٤٥- جابر بن حيان: رسائل جابر بن حيان، تحقيق باول كراوس مكتبة الخانكى
القاهرة راجع رسالتيه اخراج ما فى القوة إلى الفعل (ص ١-٩٦) الحدود
(٩٧-١٢٢).
- ٤٦- ص ٩١ أ.
- ٤٧- ص ٩٢ أ.
- ٤٨- ص ١٠٤ أ.
- ٤٩- ديكارت: مبادئ الفلسفة ترجمة د. عثمان امين مكتبة النهضة المصرية
القاهرة.. ١٩٦ ص ٧١.

